إهـــــداء

إلى ابني الغالي .. علي

عليٌ في الدنيا والآخرة إن شاء اللّه

obeikan.com

obeikan.com

مقدمة الكتاب

ما بين مستقبل روسيا ودورها في قيادة العالم، واندلاع حرب بين روسيا وتركيا، ووقوف روسيا بجانب سوريا أو دعم روسيا لإسرائيل، يقدم لنا الإعلام العربي شذرات عن الإعلام الروسي ربما تحمل الخبر ونقيضه، ومن هذه الشذرات لا يعرف المتخصص ولا المثقف الكثير عن الإعلام الروسي، ومن هنا تنبع أهمية هذا الكتاب.

فمنذ أن كتب جيل الرواد عن المدرسة الاشتراكية في الإعلام لم تصدر دور النشر العربية - خاصة تلك المتخصصة في الإعلام - شيئا عن إعلام ما بعد زلزال انهيار الاتحاد السوفيتي السابق عام ١٩٩١.

وقد تعرض الإعلام الروسي لانقلابات عدة في الفترة من ١٩٩١ إلى ٢٠١٦ على صعيد الملكية والحرية وسياسات التحرير وكذا على صعيد طبيعة جمهوره والقائم بالاتصال، ويحاول هذا الكتاب أن يقدم - عبر ما يقرب من ربع قرن - صورة بانورامية عن الإعلام الروسي، خاصة علاقته بالسلطة السياسية ورجال الأعمال.

في خلال الخمسة عشر سنة الأخيرة من سيطرة فلاديمير بوتين على روسيا كرئيس وكرئيس وزراء، طورت روسيا بشكل حثيث نوعا حديثا من الإعلام الذي يتبنى التكنولوجيا الغربية المتقدمة لتقديم وجهة النظر الحكومية للكرملين والرئيس إلى الجمهور الروسي والعالم أجمع، وأعاد بوتين هيكلة الإعلام الروسي الذي يحوز شعبية في روسيا بتغيير نمط ملكيته أو تغيير إدارته، لكي يؤسس لسيطرة مركزية أكثر عليه وليذيع رسائل متشابهة لم تتحقق منذ الحقبة السوفيتية.

وإذا كانت صورة العرب النمطية في إعلام الدول الغربية كالولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا معروفة بحكم التراكم المعرفي الكبير، فإن صورتهم في إعلام روسيا قليل ما يتم رصدها وتحليلها، فالعرب عندما نفضوا الاهتمام عن روسيا في التسعينات، علت وبقوة الأصوات الصهيونية في الإعلام الروسي وهو سبب أخر لأهمية دراسة هذا الإعلام.

والحق أن وسائل الإعلام الروسية مطيعة للسلطات في كل شيء، إلا عندما يتعلق الأمر بمواقف حيال العرب وقضاياهم، فهي تغدو «مستقلة» و«جريئة» وبارعة في استخدام «حرية التعبير.»

هكذا يبدو المشهد عندما يتناول الأمر الحقوق الفلسطينية مثلاً، تقول السلطات الروسية: إنها تدعم قيام الدولة الفلسطينية وتطالب إسرائيل بوقف الاستيطان، لكن الصحافة وقنوات التليفزيون الحكومية لها رأي مختلف، فالعرب كما يقول الضيف «المحبب ودائم الحضور» في كل قنوات التليفزيون يفجيني ساتونوفسكي «بنوا دولاً فاشلة» ويجب ألا تظهر "دولة إرهابية جديدة" على خريطة الشرق الأوسط.

و «الخبير» صاحب المواقف التي تزايد على الليكود ومن هم أشد تطرفًا من بنيامين نتنياهو في إسرائيل، يُقدَم في وسائل الإعلام الروسية ليس بصفته رئيسا سابقا للمؤتمر اليهودي، بل كرئيس لمعهد دراسات الشرق الأوسط، وأبرز خبير في شئون العالم العربي.

وينسحب الأمر ذاته على كثيرين، بينهم فلاديمير سوفوليوف أبرز مقدمي البرامج في القناة الحكومية الأولى، الذي يفاخر بصهيونيته ويوجه أقذع الشتائم إلى العرب في أي مناسبة، وفشلت محاولات أوساط دبلوماسية واجتماعية عربية لـ «التوسط» لدى الجهات المعنية الروسية لتخفيف اللهجة ضد العرب في وسائل الإعلام الحكومية، أو حتى منح العرب فرصة مماثلة للظهور في وسائل الإعلام، وتقديم وجهة نظرهم بشكل متكافئ مع وجهة النظر الأخرى.

ويركز إعلام التيار السائد في روسيا على إعادة إنتاج الصورة النمطية للعرب عند الروس، بحسب عنوان مقالة نشرتها أخيراً مؤسسة إعلامية حكومية كبرى.

وتحت هذا العنوان يقدم العربي بصفته «ثريا يعيش في قصر فاخر ويرتدي جلبابا أبيض اللون، ويكثر من الزواج، ويضطهد المرأة، ويغرق في

تشدده الديني بالإضافة إلى كسله وعدم حبه للعمل»، بينما يتجاهل القائمون على مؤسسات الإعلام هذه أن ملايين الروس يزورون سنويا مصر ودبي والأردن وتونس والمغرب للسياحة والعمل، والسعودية للحج، وبلدانا عربية أخرى بهدف التعاون التجاري والاقتصادي، ما يعني أن كثيرين منهم باتوا مطلعين على حقيقة الأوضاع في المنطقة.

هذا في الوقت الذي يعتقد البعض مثلا أن محطة روسيا اليوم بالعربية هي محطة فلسطينية بامتياز، فقد أسسها الرئيس الفخري السابق للجالية الفلسطينية في موسكو الإعلامي ألكسندر سيدوروف صديق بوتين، ومعظم العاملين فيها فلسطينيون وتسودها اللهجة الفلسطينية، وكذلك فإن محطة روسيا اليوم بالاسبانية هي الأولى من حيث المشاهدة في أمريكا اللاتينية، ومحطة روسيا اليوم الانجليزية هي المحطة الثانية من حيث المشاهدة في الولايات المتحدة بعد سي إن إن، وقد فضحت جرائم الاحتلال الإسرائيلي أثناء حرب غزة.

وكذلك فإن شخصية بوتين الكارزمية وزعامته الفائقة قد ألهمت الكثيرين من القادة في العالم العربي لاستنساخ بعضا من السياسات الروسية الداخلية والخارجية، لا سيما في تأسيس خطابا قويا معارضا لسياسات الولايات المتحدة في الشرق الأوسط، عندما استطاعت موسكو إعادة إطلاق علاقاتها مع حلفائها التقليديين في المنطقة على أسس جديدة.

ومن اللافت للانتباه التطور غير المسبوق في علاقات روسيا بدول الخليج العربي، خاصة المملكة العربية السعودية، بعد عقود طويلة من توقف العلاقات بينهما منذ ثلاثينيات القرن الماضي، وكانت زيارات الرئيس الروسي فلاديمير بوتين المتكررة للمنطقة العربية نقطة تحول في العلاقات الروسية العربية، وإيذانا ببدء حقبة جديدة في السياسة الروسية تجاه المنطقة، تستعيد فيها روسيا مكانتها كفاعل أساسي في شئون المنطقة وقضاياها التي تتزايد حدة وتعقيدا.

وخلافا للعهد السوفيتي الذي كانت فيه موسكو الداعم لكل الثورات وحركات التحرر الوطني في العالم، لم تعلن روسيا تأييدا صريحا للثورة والثوار أثناء الربيع العربي، فقد التزمت الصمت إزاء الأحداث لحين نضجها وإزاحة من بالسلطة، كما حدث في تونس ومصر، ووقفت موقف المحايد أو المتابع، واتسم موقفها بالتأني الذي وصل لحد البطء في رد الفعل في حالة اليمن والبحرين.

في حين أبدت مواقف مؤيدة بوضوح للسلطة الحاكمة في ليبيا وسوريا، ولمصر عقب الثورة على حكم الإخوان المسلمين مع اختلاف نمط ودرجة

التأييد، ولكن مع الحرص في الوقت ذاته علي إبقاء قنوات اتصال مفتوحة مع الثوار، في محاولة لتحقيق أكبر قدر ممكن من التوازن والتأكيد الدائم على نزاهة مواقفها وحرصها على الاستقرار الداخلي والإقليمي للدول العربية.

وعلى صعيد أخر، فقد حرص الباحثون الروس في مجال الإعلام منذ ٢٠٠٨ على نشر أبحاثهم باللغة الإنجليزية فظهرت إلى الوجود عدة دوريات إنجليزية متخصصة في الإعلام الروسي، كما حرصوا على دعوة صفوة باحثي الإعلام في العالم للنشر في هذه الدوريات، وللإطلاع على المدرسة الروسية في بحوث الإعلام كمحكمين وخبراء، وللحوار الأكاديمي الثقافي حول إدراك الباحثين الأمريكيين والأوروبيين لقضايا الإعلام الروسي وأوضاعه.

وقرار الروس بأن يكون لهم حضور أكاديمي باللغة الإنجليزية هو قرار سياسي – علمي بامتياز في ظل الانفجار المعرفي العولمي للنشر باللغة الانجليزية، ويتواءم مع الحضور الإعلامي الروسي باللغة الانجليزية في شكل وكالات أنباء متقدمة مثل إيتار تاس ومحطات تليفزيون تصرف عليها الحكومة الروسية بسخاء وفي مقدمتها قنوات روسيا اليوم.

ويُمكن هذا الكتاب الباحثين من التعرف على الاتجاهات الحديثة في الإعلام الروسي وقضاياه وموضوعاته، والمجالات التي تم التركيز عليها والأخرى التي لم تحظ باهتمام كبير مما يعني تقديم مؤشرات لتوجيه نظر الباحثين لموضوعات بحثية جديدة في الإعلام الدولي، ويسعى الكتاب أيضا لتقديم رؤى مستقبلية عن مستقبل الإعلام الروسي كنظام إعلامي لدولة

ذات أهمية خاصة لمصر وللعالم العربي ثم للعالم جملة. في الفصل الأول يرصد الكتاب الإطار الاقتصادي والسياسي للإعلام الروسي أو التطور الاقتصادي والسياسي في روسيا في ربع القرن الأخير، ويركز الفصل الثاني على تطور ملكية الإعلام الروسي وانعكاساته، وعلى تشخيص النظام الإعلامي الروسي الراهن الذي أسس لنظام جديد هجين فيه ملامح ليبرالية وأخرى سلطوية.

وفي الفصل الثالث يحاول الكتاب أن يقدم تطورا تاريخيا وتقنيا للإعلام الجديد في روسيا، الإعلام الذي لم تطاله يد الدولة الروسية القوية حتى الآن، تلك اليد المسيطرة على أغلب القنوات الإذاعية والتليفزيونية وأغلب الجرائد والمجلات، وكذلك لأن هذا الإعلام الجديد هو الذي يحرك الأحداث السياسية الدرامية في روسيا منذ احتجاجات نهاية عام ٢٠١١، ولأنه الإعلام الذي يؤثر خطابه على خطاب وسائل الإعلام التقليدية، ونتيجة للزيادة المطردة في جمهوره خاصة من الشباب.

أما الفصل الرابع فيناقش الرقابة وثقافة المعلومات في روسيا محللا الثقافة السائدة في وسائل الإعلام والتي هي ثقافة الموائمة الموقفية وليست ثقافة القيم الديمقراطية العالمية، وراصدا التركيز على الأفكار الجمعية بأهمية وجود أمة قوية مثالية قادرة على الدفاع عن نفسها وحماية أراضيها وهي قيمة تجب قيمة حرية التعبير الفردية بما لا يقارن.

على حين يرصد الفصل الخامس السياسات التحريرية للإعلام الروسي في دراسات حالة ممثلة عن تغطية هذا الإعلام للحروب في الشيشان وجورجيا والقرم وأوكرانيا، وللحرب في سوريا، وكذلك يرصد الفصل صورة روسيا في إعلام الدول الأوروبية وغيرها، ويقوم الفصل السادس من الكتاب باستقراء واقع جمهور وسائل الإعلام في روسيا، خاصة تحول روسيا من أمة قارئة إلى أمة مشاهدة للتليفزيون.

ثم يختتم الكتاب بفصل تطبيقي سابع عن صورة العالم الإسلامي في الكاريكاتير الروسي من ٢٠١١ إلى ٢٠١٥ محللا هذا الفن الصحفي الجذاب علاماتيا وثقافيا.

ويتقدم مؤلف الكتاب بجزيل الشكر للطبيب الدكتور حميد المصري مدير مكتب التعاون التعليمي والثقافي مع روسيا الاتحادية على معاونته المخلصة لي في نطق الكلمات الروسية وكتابتها بحروف عربية بشكل صحيح.

ونأمل أن يجد القراء في (الإعلام الروسي من جورباتشوف إلى بوتين) الجديد والمفيد في مجال الإعلام الدولي ودوره في السياسة العالمية، وأن يجد الباحثون في الإعلام مصادر تفكير وتأمل في نظام إعلامي لقطب عالمي شديد الأهمية جدير بالبحث والاستقصاء، والله من وراء القصد.

د. محمد حسام الدين إسماعيل

الجيزة - يناير ٢٠١٧

obeikan.com